الفصل الثاني عشر

حادثة دنشواي (١٣يونية١٩٠٦م)

لا مراء في أن حادثة دنشواي هي من حوادث مصر التاريخية التي لا تنسى على مر السنين؛ لما كان لها من الأثر البليغ في تطور الحركة الوطنية، وفي مركز الاحتلال الإنجليزي، فهي نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومي عمَّ فيها الشعور الوطني بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال.

تفاصيل الحادثة

ترجع هذه الحادثة إلى أن بعض الضباط من جيش الاحتلال وبعض الموظفين البريطانيين كانت لهم عادة أن يتجولوا في بعض القرى والبلاد ليصطادوا الطيور ببنادقهم؛ في يوم (الإثنين ١١ يونية سنة ١٩٠٦م) غادرت كتيبة من نحو (١٥٠) جنديًّا بريطانيًّا القاهرة متجهة بطريق البر إلى الإسكندرية، وبعد مسيرة يومين وصلت يوم (الأربعاء ١٣ يونية) إلى (منوف)، فأبلغ خمسة من ضباطها مأمور المركز أنهم يرغبون الصيد في بلدة (دنشواي)، وهي بلدة صغيرة تابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم، ومشهورة بكثرة حمامها، وهؤلاء الضباط هم: الميجر بين كوفن قومندان الكتيبة، والكابتن بول، والملازمان بورثر وسميث ويك، والطبيب البيطري بوستك، فطلب المأمور من عبد المجيد بك سلطان أحد أعيان بلدة (الواط) أن يعد لهم مركبات عند السكة الزراعية الموصلة لبلدة (دنشواي) ففعل، فلما وصلوا إلى (كمشوش)، وقفوا هنيهة وعسكروا بها مع بقية الجند، ثم ركب الخمسة الضباط المركبات التي أعدها عبد المجيد بك سلطان مبتدئين من معدية الباجورية مارين على الناحية سرسنا، ومنها إلى (دنشواي)، وكان يرافقهم أومباشي من بوليس نقطة الشهداء وترجمان مصري، وذهب الأومباشي إلى العمدة ليبلغه خبر قدوم الضباط لكي يتخذ التحويطات التي تكفل عدم احتكاكهم بالأهلين، ولكنه ألفى العمدة

غائبًا، ولم ينتظر الضباط حضوره، ولا رجوع الأومباشي، وانقسموا فريقين؛ فريق وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الأشجار الملتفة هناك، وهؤلاء لم يصبهم أحد بسوء، والفريق الآخر جاس خلال أجران القمح في دنشواي ليصطادوا ما بها من الحمام، فاتفق أن حمامتين كانت واقفتين على جرن مملوك لمحمد عبد النبي مؤذن القرية، وكان يشتغل به أخوه شحاته عبد النبي، فجاء أحد الضباط الإنجليز وصوب بندقيته على الحمام، فصاح به شيخ طاعن في السن يبلغ الخامسة والسبعين من العمر اسمه حسن على محفوظ (وهو أول من حكمت عليهم المحكمة المخصوصة بالإعدام) طالبًا منه أن يكف عن إطلاق البندقية، وإلا احترق الجرن، وكذلك صاح به شحاته عبد النبي، فلم يعبأ الضابط، وأطلق العيار قاصدًا إصابة الحمام، فأخطأ المرمى، وأصاب امرأة تدعى «أم محمد، زوجة محمد عبد النبي المؤذن»، كما أصاب جرن شحاتة؛ فسقطت المرأة جريحة تتخبط في دمها، واشتعلت النارُ في الجرن، فأخذ يصيح ويستغيث، وهجم على الضابط وتجاذب وإياه بندقيته، وأقبل الرجال والنسوة والأطفال هائجين صائحين: «الخواجة قتل المرأة! وحرق الجرن! الخواجة قتل المرأة وحرق الجرن!» وأحاطوا بالضباط، وجاء بقية الضباط الإنجليز لإنقاذ زميلهم، فتكاثرت جموع الأهلين، ووصل في الوقت نفسه شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع، وإنقاذ الضابط، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شرًّا، فأطلقوا عليهم العيارات النارية، فأصاب واحد منهم شيخ الخفر في فخذه فسقط على الأرض وأصاب عيار آخر اثنين أحدهما من الخفراء، فصاح الجميع: «شيخ الخفر قتل! شيخ الخفر قتل!»، وحملوا على الضابط بالطوب والعصي الغليظة وأثخنوا من لحقوا بهم ضربًا، فأصيب الماجور بين كوفين قومندان الكتيبة بكسر في ذراعه، وجرح الملازمان سميث ويك وبورثر جروحًا خفيفة، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم وأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم إلى المعسكر.

خريطة مديرية المنوفية ـ وفيها موقع دنشواى الخالدة

أما الكابتن بول والطبيب البيطري الإنجليزي فتركا مكان الواقعة، وكان الأول منهما قد أصيب إصابة شديدة في رأسه، وأخذا يعدوان حتى قطعا نحو ثمانية كيلومترات في حرارة القيظ؛ إذ كانت الواقعة في صميم الصيف، فلم يكد الكابتن بول يصل إلى باب سوق (سرسنا) حتى سقط من الإعياء، ومات بعد ذلك متأثرًا من ضربة الشمس، ولما سقط تركه زميله الطبيب البيطري وأخذ يعدو حتى وصل معسكر الكتيبة بناحية (كمشوش) على ضفة الترعة الباجورية.

وما كاد نبأ الحادثة يصل إلى بقية جنود الكتيبة الإنجليزية في كمشوش حتى سارع الجنود الراكبة إلى مكان الواقعة، ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلومترات حتى بلغوا (سرسنا)، وظنوا أنها دنشواي، وهناك وجدوا ضابطهم ملقى على الثرى، ورأوا فلاحًا مصريًّا هو (سيد أحمد سعيد) يقدم إليه قدحًا من الماء، فظنوه من الضاربين،

فأنحوا عليه ببنادقهم طعنًا ووخزًا حتى هشموا رأسه، ومات بين أيديهم، وذهب دمه هدرًا، ولم يحاكم أحد من قتلته، وقد عرف هذا القتيل بشهيد سرسنا.

وصل نبأ هذه الحادثة يوم وقوعها إلى ولاة الأمور في المنوفية والقاهرة، وما أن علم بها رجال الاحتلال وعرفوا أن الكابتن (بول) قد مات عقب الحادثة، وأصيب الضباط الآخرون؛ حتى تولاهم الغضب، وعولوا على الانتقام من أهل القرية التي وقعت فيها الحادثة انتقامًا ذريعًا شنيعًا.

المحاكمة

ثارت ثائرة الاحتلال من وقوع الحادثة، على أنها في الواقع راجعة أولًا إلى اقتحام الضباط البريطانيين بدون حق غيطان الأهالي وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم، وذهب المستر «متشل» مستشار وزارة الداخلية إلى مكان الحادثة يوم وقوعها، وجرى التحقيق فيها بمنتهى السرعة، وأخذ ولاة الأمور يقبضون على الأهلين جزافًا، ونشرت صحيفة (المقطم) الموالية للاحتلال يوم (١٨ يونية) قبل أن ينتهي التحقيق أن الأوامر صدرت بإعداد المشانق وإرسالها إلى مكان الواقعة، فدهش الجمهور لهذا النبأ، وتوقع أن أحكامًا صارمة بالإعدام ستصدرها المحكمة المخصوصة، وأن المحاكمة إنما هي مهزلة صورية لا ظل فيها للعدل، ولا حرمة للقانون.

وكان الأمر العالي الصادر في (٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥م) بتأليف المحكمة المخصوصة التي تحكم فيما يقع بين الأهالي من الجنايات والجنح على عساكر أو ضباط جيش الاحتلال لا يزال قائمًا (راجع ص٥٨)، ففي (٢٠ يونية سنة ١٩٠٦م) أي قبل انقضاء سبعة أيام على وقوع الحادثة، أصدر بطرس باشا غالي وزير الحقانية بالنيابة قرارًا بتشكيل المحكمة المخصوصة لمحاكمة المتهمين فيها برياسة بطرس باشا غالي ذاته، وعضوية كل من المستر «هيتر» نائب المستشار القضائي، والمستر «بوند» وكيل محكمة الاستئناف الأهلية، والقائمقام «لادلو» القائم بأعمال المحاماة والقضاء بجيش الاحتلال، وأحمد فتحي بك زغلول (باشا) رئيس محكمة مصر الابتدائية، وأن يكون

انعقادها في شبين الكوم يوم (الأحد ٢٤ يونية)، وعين عثمان بك مرتضى رئيس أقلام وزارة الحقانية سكرتيرًا للمحكمة، وبلغ عدد من قدمتهم الإدارة لمحاكمتهم في هذه الحادصة اثنين وخمسين متهمًا، قدموا جميعًا مقبوضًا عليهم، وسبعة من الغائبين.

وقد انعقدت المحكمة المخصوصة بهيئتها السالف ذكرها يوم (الأحد ٢٤ يونية) بسراي المديرية بشبين الكوم الساعة العاشرة صباحًا، وكان يحيط بها جو من الرهبة يملأ النفوس فزعًا، والقلوب جزعًا، والجنود الإنجليزية والمصرية ترابط حولها وعلى مقربة منها، وأخذت في سماع أقوال الشهود، وقد ثبت من شهادة الدكتور «نولن» الطبيب الشرعي أمام المحكمة -وكان إنجليزيًّا- أن وفاة الكابتن بول راجعة مباشرة إلى ضربة الشمس، وأنه لو لم يصب بها لما حدثت الوفاة من إصابة الرأس التي أصابته في الحادثة.

وكان تحامل المحكمة على المتهمين باديًا أثناء سماع الشهود، حتى أنه حين كان أحد الشهود -واسمه عبد العال صقر- يروي الحادثة بما يدل على تحذيره الضباط الإنجليز من الصيد داخل القرية، قال له المستر بوند: ألا تعرف أن هذه المحكمة تعاقب الشهود الزور؟ قال: نعم. فقال المستر بوند: أنا أعرف المصريين أمثالك كيف تكون شهادتهم.

واستمرت المحكمة في سماع الشهود والدفاع ثلاثة أيام حتى يوم (٢٦ يونية).

الحكم

وانعقدت المحكمة في صباح اليوم الرابع (الأربعاء ٢٧ يونية) وتلا سكرتير الجلسة الحكم، وهو يقضي على كل من:

أولًا: حسن علي محفوظ، ويوسف حسن سليم، والسيد عيسى سالم، ومحمد درويش زهران، بالإعدام شنقًا في قرية دنشواي.

ثانيًا: محمد عبد النبي مؤذن القرية، وأحمد عبد العال محفوظ، بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ثالثًا: أحمد محمد السيسي بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة.

رابعًا: محمد علي أبو سمك، وعبده البقلي، وعلي علي شعلان، ومحمد مصطفى محفوظ، ورسلان السيد علي، والعيسوي محمد محفوظ، بالأشغال الشاقة سبع سنين.

خامسًا: حسن إسماعيل السيسي، وإبراهيم حسنين السيسي، ومحمد الغباشي السيد علي، بالحبس مع التشغيل سنة واحدة، ويجلد كل واحد منهم خمسين جلدة، وأن ينفذ الجلد أولًا بقرية دنشواي.

سادسًا: السيد العوفي، وعزب عمر محفوظ، والسيد سليمان خير الله، وعبد الهادي حسن شاهين، ومحمد أحمد السيسي، يجلد كل واحد خمسين جلدة بقرية دنشواي، مع تكليف مدير المنوفية بتنفيذ الحكم فورًا.

فيكون مجموع من حكم عليهم واحدًا وعشرين متهمًا، حكم بالإعدام على أربعة منهم، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبها لمدة خمس عشرة سنة على واحد، وبالسجن سبع سنوات على ستة، وبالحبس مع الشغل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة.

كيف قوبل الحكم؟

قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون وخلا من كل إنصاف وعدل؛ إذ كانت الحادثة راجعة أصلًا إلى عدوان الضباط البريطانيين، ولم يقع اعتداء من الأهلين إلا بعد أن أصيبت إحدى نسائهم وحرق جرن لهم، ولم يمت من الضباط الإنجليز سوى ضابط واحد ثبت من تقرير الطبيب الشرعي الإنجليزي أن السبب المباشر لوفاته هو ضربة الشمس التي أصابته من شدة

الحر، وقد دل هذا الحكم على أن العدل الإنجليزي لا يؤمن جانبه إذا كانت الخصومة تمس صالح إنجليزي!

تنفيذ الحكم (٢٨ يونية سنة ١٩٠٦م)

كان تنفيذ الحكم بطريقة وحشية زادت فظاعة المحاكمة، وفاقت كل ما يتصوره العقل، من وسائل الانتقام والتعذيب، وكان التنفيذ في اليوم التالي لصدور الحكم في المكان الذي مات فيه الكابتن بول، وفي مثل الساعة التي وقعت فيها الحادثة، ففي الساعة الرابعة بعد منتصف الليل سيق المحكوم عليهم بالإعدام والمحكوم عليهم بالجلد إلى نقطة الشهداء، على مسافة نحو عشرين كيلومترًا من شبين الكوم وأربعة كيلومترات من قرية دنشواي، وأنزلوا بها بحراسة الجنود البريطانية والمصرية، حتى إذا اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر جيء بهم إلى دنشواي، وهناك نصبت المشنقة وآلة الجلد، ونفذ الحكم بقسوة وفظاعة، فبدأ التنفيذ في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر، ونفذ الحكم في المشنوق الأول علنًا، على مرأى ومسمع من أهله وذويه، وبين صياح النساء ونواحهن، وبقي معلقًا بينما نفذ حكم الجلد في اثنين، ثم شنق الثاني بنفس الطريقة، يليه جلد اثنين آخرين، وهكذا تمت المجزرة في منتصف الساعة الثانية مساء. قال المرحوم الأستاذ «أحمد حلمي» -المحرر وقتئذ بـ(اللواء) في ختام وصفه لمأساة التنفيذ-:

«كاد دمي يجمد في عروقي بعد تلك المناظر الفظيعة، فلم أستطع الوقوف بعد الذي شاهدته، فقفلت راجعًا وركبت عربتي، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطه كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه. هذا ورجائي من القراء أن يقبلوا معذرتي في عدم وصف ما في البلدة من مآتم عامة، وكآبة مادة رواقها على كل بيت، وحزن باسط ذراعيه حول الأهالي، حتى أن أجران أغلالهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية، وتأكل فيها الأنعام والدواب بلا معارض ولا ممانع، كأن لا أصحاب لها ومعذرتي واضحة؛ لأني لم أتمالك نفسي

وشعوري أمام البلاء الواقع الذي ليس له من دافع إلا بهذا المقدار من الوصف والإيضاح».

ولقد كنت حينما وقعت الحادثة طالبًا بالسنة الثانية من مدرسة الحقوق، وكنت أطالع نبأها في اللواء، فأدهش لمخالفة منهج التحقيق والمحاكمة فيها لما كنا نتلقاه من أصول المحاكمات الجنائية التي تقضي بها القوانين، وتساءلت: ما فائدة ما نتلقاه من الدروس والقواعد القانونية إذا كانت لا تطبق على الناس كافة؟! ولما تلوت وصف التنفيذ في اللواء بقلم «أحمد أفندي حلمي» اقشعر بدني من هَوْل ما قرأتُ، وأدركتُ مبلغ هوان المصري في نظر الاحتلال، وتحققت أن لا كرامة لأمة ولا لأي فرد من أبنائها بغير الاستقلال.

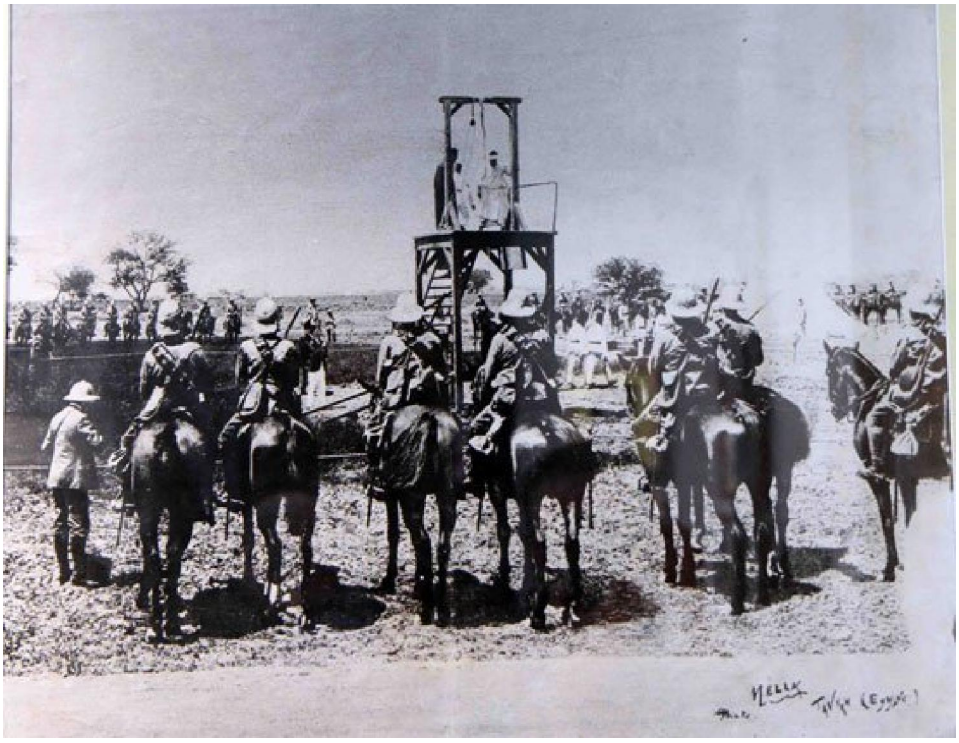

ساحة الإعدام في دنشواي – ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦ إعدام أول المشنوقين الأربعة وترى عساكر الدراجون الإنجليز يحيطون بساحة الإعدام

مصطفى كامل وحادثة دنشواي

كان الفقيد في أوربا حين صدر حكم المحكمة المخصوصة في قضية دنشواي وقد بلغته أنباء المحاكمة والتنفيذ وهو في باريس، وكانت النفوس في مصر واجمة يحز فيها الألم وهي ساكتة، كانت تتألم، ولكن ألم اليائس المستضعف أمام جبروت الاحتلال وبطشه.

وصف المرحوم (قاسم أمين) هذه الحالة النفسية يوم تنفيذ حكم دنشواي بقوله: «رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبًا مجروحًا وزورًا مخنوقًا، ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشيءٍ من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت، وعبارات متقطعة، وهيئة بائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة، ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتومًا في النفوس لم يجد سبيلًا يخرج منه فلم يبرز بروزًا واضحًا حتى يراه كل إنسان».

المشنوق الرابع في دنشواي وهو يصعد إلى المشنقة (٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦)

فهذا اليأس، وهذا السكوت، وهذا الاستسلام والوجوم الذي استولى على النفوس بعد حادثة دنشواي، وهذا الشعور الذي بقي مكتومًا -على حد تعبير قاسم أمين- لم يكن لينهض بالأمة، ولا ليوقظ فيها روح الكرامة والإباء؛ بل كان من شأنه لو دام أن يزيدها يأسًا وهوانًا واستسلامًا، ولكن عبقرية مصطفى كامل هي التي أبدلت من هذا اليأس قوة، ومن هذا السكون حياة وثورة.

لقد كان لا بد من صوت عال يهز قلب الإنسانية، ويشهد العالم على تلك الفظائع ويستثير الرأي العام في مصر وأوربا ضد الاحتلال عامة، وكان ذلك هو صوت الفقيد، ورغم أنه ذهب إلى أوربا للاستشفاء ونصح له الأطباء أن يلزم الراحة والهدوء، فإنه لم يكد تصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه وتحرك قلبه الكبير إلى العمل والجهاد، ونهض بكل قوته لكي يسمع العالم صوت مصر، ويعلن حربًا شعواء على الاحتلال وسياسته، فكتب في جريدة (الفيجارو) الفرنسية الشهيرة[1] مقالة كبرى نشرت في الجريدة بعنوان (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن)، عرض فيها حادثة دنشواي على الضمير الإنساني في العالم، فكانت من أقوى وأبلغ ما كتب الفقيد بلسان مصر، وقد استطرد فيها إلى جهاد المصريين في سبيل الاستقلال، وأبان أن حادثة دنشواي قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه من أن الفلاحين المصريين محبون للاحتلال الإنجليزي، وأسمع العالم صوت مصر؛ إذ قال فيها:

«إن مقصدنا الذي نرمي إليه هو استقلال وطننا، ومحال أن يوجد شيء ينسينا ذلك المقصد».

ولما كانت هذه المقالة هي في ذاتها من أهم حوادث الحركة الوطنية، وكان من نتائجها إقالة اللورد كرومر من منصبه، فإنا ننشر ترجمتها هنا كاملة؛ قال رحمه الله:

---

(١) عدد ١١ يولية سنة (١٩٠٦م).

إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن

«لقد حدثت حادثة مؤلمة في قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى «دنشواي» تحركت بسببها عواطف الإنسانية في العالم كله، وقام رجال أحرار الفكر مستقلو الأخلاق والأطوار في إنجلترا رافعين أصواتهم، سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس؟

وإنه لمن الواجب على الذين يشغفون حقيقة بالإنسانية والعدل، أن يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل، وهي المسألة الشاغلة لأمة بأسرها!

فقد ترك ضباط من الإنجليز في يوم (١٣ يونية) الماضي معسكرهم بالقرب من دنشواي بمديرية المنوفية، وقصدوا صيد الحمام في الأملاك الخصوصية للأهالي، فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالي قد استاءوا في العام الماضي من صيد الضباط الإنجليز لحمامهم، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد في هذا اليوم!

ورغمًا من هذا الإنذار فإن الضباط أخذوا يصطادون، وأطلقت العيارات النارية، وجرحت امرأة، وحُرق جرن، فاجتمع الفلاحون من كل مكان، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الإنجليز جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين، وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الإنجليز، وقد تخلص أحد المجروحين، وهو الكابتن «بول» من المعركة، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلومترات، حيث كانت حرارة الشمس بالغة (٤٢) درجة، وسقط بعد ذلك ميتًا بضربة الشمس وما علم العساكر الإنجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواي، وقتلوا فلاحًا بدق رأسه!

هذه هي الوقائع، وما علمها أصحاب الأمر من الإنجليز حتى فقدوا الرشد، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم! وبدلًا من أن ينظروا

إلى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك، بالغوا فيها وجسموها، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التي ستضرب للناس ستكون هائلة! فلم يكن العدل هو المنشود في المسألة؛ بل الانتقام الفظيع!

ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر «متشل» المستشار الإنجليزي قبل المحاكمة بأسبوع بلاغًا رسميًّا أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم، وقصدت صراحة التأثير في المحكمة والرأي العام! وبلغ من احتقار إحدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق إلى دنشواي قبل المحاكمة، وقد راع الشعب كل ذلك، فأخذ يتساءل عن الحكم الذي ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة.

وقد اجتمعت المحكمة في يوم (٢٤ يونية)، وأي محكمة؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ولا قانون يربطها! لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التي تخطر على البال! محكمة أغلبيتها للإنجليز، ولا تستأنف أحكامها، ولا تقبل العفو! وأن المرسوم الذي صدر بتشكيلها في عام (١٨٩٥م) بناء على ضغط اللورد كرومر -ذلك الضغط الذي لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقًا بإظهار أي مقاومة- يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الإنجليزي الذي ألقت إليه إنجلترا أمر تأييد الأمن في مصر، في خطر مستمر، جعله في حاجة إلى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة إرهاب.

قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام في نظر القضية، وتبين أن الضباط الإنجليز هم الذين هاجموا الفلاحين بصيدهم في ممتلكاتهم، وبجرحهم إحدى نسائهم، وأن الفلاحين هجموا على الإنجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد، لا ضباط بريطانيون! واعترف أمام المحكمة أطباء إنجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعي للمحاكم بأن الكابتن «بول» مات بضربة شمس، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لإحداث الوفاة!

ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهمًا ليقولوا ما عندهم، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس، حيث أكد أن الضباط الإنجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالي، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب في المعركة، والذين يعتبرهم العدل في كل بلد خصومًا للمتهمين!

وفي يوم (٢٧ يونية) صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة عامًا على واحد، وبها لمدة سبع سنوات على ستة، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة، وبالجلد على خمسة، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول!!

وقررت المحكمة في حكمها تنفيذ الحكم في اليوم التالي! بحيث لم يمض إلا خمسة عشر يومًا بين الواقعة وتنفيذ الحكم.

ففي الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء (٢٧ يونية) جيء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق، والثمانية المحكوم عليهم بالجلد (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) من شبين مقر مديرية المنوفية إلى قرية (الشهداء) التي تبعد أربعة كيلومترات عن دنشواي، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع! وفي الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس (٢٧ يونية) جيء بهم إلى دنشواي، وكان أصحاب الأمر من الإنجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم في محل الواقعة وفي الساعة التي وقعت فيها!

نُصبت المشانق، ووضعت آلات الجلد والتعذيب في وسط دائرة مساحتها (٢١٠٠ متر)، وأحاطت عساكر «الدراجون» الإنجليزية بالمحكوم عليهم، والتفت الخيالة المصرية حول الإنجليز، وتولى المستر «متشل» مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ! وقد تقدم إليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلًا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة، فرفضا نول هذا الرجاء الذي هو أعز ما يرجوه الإنسان ويحتمه الشرع والعدل!

وفي منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الإنجليزية خيولها وشهرت سيوفها، بدئ بعد ذلك بدقيقة في الشنق!

فشنق رجل، ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالي القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب، وجلد اثنان أمام الجثة!

وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات، واستمر ساعة من الزمن! منظر وحشي مهيج للعواطف، بكى منه بعض الحاضرين الأوربيين بدموع الحنان، وأبدوا النفور الشديد مما رأوا، وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين:

لعنة الله على الظالمين! لعنة الله على الظالمين!

إن يوم (٢٨ يونية من عام ١٩٠٦م)، سيبقى ذكره في التاريخ شؤمًا ونحسًا! وهو خليق بأن يذكر في عداد أيام التناهي في الهمجية والوحشية!

عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم في دنشواي، ولقد كان من المستحيل على أعداء إنجلترا أن يصلوا إلى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عامًا! ولكن من العجيب أن يكون الموجدون لها هم رجال من الإنجليز!

وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواي أشعارًا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التي أهينت فيها المدنية والإنسانية والعدل بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس!

وإني جئت اليوم أسأل الأمة الإنجليزية نفسها والعالم المتمدن، إذا كان يصح التسامح في إغفال مبادئ العدل وشرائع الإنسانية إلى هذا الحد؟

جئت أسأل الإنجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبي والمادي لإنجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية؟

جئت أسأل الذين يجاهرون في كل آنٍ ذاكرين الإنسانية، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط: إذا حدثت فظائع في بلاد أخرى دون فظيعة دنشواي ألف مرة أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفي وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوربية في أعين العالم كافة!

جئت أسأل الأمة الإنجليزية: إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها في مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عامًا إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية بل وأكثر من همجية، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الإنسان؟

إني معجب بكل إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الإنجليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التي مثلت في مصر! ولكن لما رأى السير «إدوارد جراي»[1] أن الرأي العام انقاد لهم، وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر، وقف في مجلس العموم وتكلم عن التعصب الإسلامي المزعوم في مصر، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح ألا يشتغلوا بمسائل مصر، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية، أو بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق في مصر، أمام خطر أصرح أنا علنًا بأنه موهوم!!

إن هذا الخطر الموهوم ليس في أيدي أصحاب الأمر من الإنجليز إلا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة، وفظائع أخرى تقع في المستقبل!!

إنه لا وجود لهذا الخطر وما الغرض من هذه الفظائع إلا إحداثه!

وإني أؤكد بحق أقدس شيء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الديني في مصر، نعم إن الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمى، ولكن الإسلام شيء والتعصب شيء آخر، لقد انخدع السير «إدوارد جراي» في هذه المسألة! وإني أرجوه أن يفكر

(١) وزير خارجية إنجلترا وقتئذ.

لحظة فيما يأتي: هل لو كان في مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع إنجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلمًا أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم؟

هل تنفيذ الحكم في دنشواي بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيًا وحده لإشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة؛ لو كان له وجود؟

ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لإخراج الشعب المصري عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة؟

ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذي تكلم عنه السير «إدوارد جراي» معارك كمعركة دنشواي أثناء مسألة طابة، حيث كانت الأغلبية الكبرى من المصريين في جانب تركيا، مع أن الجنود الإنجليزية كانت تمر دائمًا في كل جهة بكل أمان واطمئنان؟

لقد أثبتت المرافعات في قضية دنشواي بكل إفاضة وبيان أنه لا دخل للإسلام فيها، وأن الضباط الإنجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيدًا!

إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقًا دقيقًا كاملًا في المسألة، وإن مصر على بعد يومين من أوربا، فليأت إليها الإنجليز المحبون للعدل الراغبون في عدم ثلم الشرف البريطاني، وليذهبوا إلى المدائن والقرى، وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين كافة، وليقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصري ليس متعصبًا أبدًا؛ ولكنه شعب كريم أبي ينشد العدل والمساواة، ويطلب أن يعامل كشعب حر لا كقطيع من الأغنام، وأنه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الأسمى؛ مطلب الحرية والاستقلال!

أجل، إن الشعب المصري شاعر الآن بكرامته، وذلك أمر لا يمكن إنكاره بأي حال، إنه يطلب معاملة أبنائه أسوة بالأجانب، وهو طلب عدل وغير مبالغ فيه أبدًا!

لقد تكلم السير «إدوارد جراي» في موضوع حماية الأوربيين ضد المصريين! ولكن هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوربيين القاطنين مصر؟ ألا يعيشون في أتم

صفاء مع المصريين؟ ألا تحميهم الامتيازات الأجنبية؟ ولكن من يحمي المصريين؟ ألا نرى في بعض الأحيان مجرمين من الأجانب -يحتج النزلاء جميعًا على جرائمهم- يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية؟ وأي عقاب ستعاقب به الجنود الإنجليزية التي قتلت الفلاح على مقربة من دنشواي، وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال؟

إن اللورد كرومر دافع عن نفسه في تقريره الأخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التي يتصرف بها في أمور مصر قائلًا: إن البرلمان والرأي العام في إنجلترا يراقبان أعماله، كما أنَّ الصحافة المصرية تراقبها أيضًا.

ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما كاد البرلمان البريطاني يعترض ويحتج على أعمال وحشية كهذه، حتى قال اللورد كرومر للسير «إدوارد جراي» بأن التعصب مخيف على شواطئ نهر النيل، وأنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والإنصاف!!

لذلك يقضي شرف الأمة الإنجليزية عليها بأن توازن بين الأقوال الرسمية وأقوالنا، وتقوم بإجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة أمامها الآن بكل استقلال!

لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكد بأن الأمراء والكبراء في مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال؛ لأنه سلبهم سلطتهم، أمَّا الفلاحون فإنهم يحبونه حبًّا جمًّا ويدعون بدوام العصر الحاضر!!

وبناء على ذلك فإنه لم يكن اعتداء فلاحي دنشواي على الضباط الإنجليز إلا لأنهم رأوا إحدى نسائهم مجروحة، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة، ويحق للعالم كله أن يقابلهما بمزيد السخط! وإذا كان الأمر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعًا لعاطفة حقد ديني أو وطني، فيتحتم على اللورد كرومر أن يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال، وأن إدارته أدت إلى إخفاق ليس له مثيل، ويحق

عندئذ للمستر «ديلون» أن يقول مؤكدًا: إن خطبة السير إدوارد جراي هي أتعس شرح لمركز إنجلترا وسياسيتها في مصر.

على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة، يعترفون بأن حادثة دنشواي لم تكن مطلقًا نتيجة حركة عدائية ضد الأوربيين، وأن المصريين هم أكثر أمم الأرض اعتدالًا وتسامحًا!

إن الخطة الوطنية التي يجري عليها أصحاب النفوذ والتأثير في الرأي العام المصري واضحة جلية، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم إنهاض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته، وإرشاده إلى المقام اللائق به في العالم، وأننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيش كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية، وأننا أول شعب شرقي صافح أوربا، وأننا مستمرون على السير في الطريق الذي سلكناه، وأننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقي ننال احترام العالم وحرية مصر، ومقصدنا الذي نرمي إليه هو استقلال وطننا، ومحال أن يوجد شيء ينسينا ذلك المقصد الأسمى!

إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعي ولا تعصب فيه، وإنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية في عصبة واحدة ضد أوربا، والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون في إيجاد هاوية بين العالم الأوربي والمسلمين!

إنه لا سبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقي!

وإن لمصر مكانًا خاصًّا بها في الشرق، فهي التي وهبت العالم قناة السويس، وفتحت السودان للمدنية، وفيها طبقة راقية الفكر، وتقدم الأمة بالأمة يمشي فيها سراعًا، ومن المستحيل أن تُحكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة في أعماق إفريقية، وليس بينها وبين أوربا اتصال! ألم ير الناس الإنجليز ينفعلون ويهيجون ضد

ما يجري في جهات الكونجو وغيرها من البلاد؟ فكيف يسمحون إذن بحدوث أفظع الجرائم في مصر؟

إنه من الواجب على أوربا كلها أن تهتم بمصر فأن صوالحها فيها جسيمة والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها، وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلى هياج الشعب المصري وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية.

إننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية، نطلب دستورًا ينقذنا من السلطة المطلقة، ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل في إنجلترا ألا يكون معنا ويطلبوا مثلنا ألا تكون مصر -تلك التي وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية- أرضًا تمرح الهمجية فيها، بل بلادًا تستطيع المدنية والعدالة أن يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة».

مصطفى كامل

دَوَّت المقالة في أوربا دويًّا عظيمًا، وتناقلتها الصحف في مختلف البلدان، وكان لبلاغتها وعباراتها المؤثرة، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية، والتعليق عليها في معظم الصحف الأوربية والبريطانية، صدى بعيد في الرأي العام الأوربي والإنجليزي، وتزلزل من بعدها مركز اللورد كرومر في مصر وإنجلترا.

ونصحت جريدة (التريبون) الإنجليزية بوجوب منح مصر حكومة مستقلة، وكتبت مجلة المجلات الإنجليزية بقلم الكاتب الإنجليزي الشهير المستر «ستيد» مقالة ذكر الإنجليز فيها بوعودهم لمصر منذ بدء الاحتلال، وأخذت الصحف العالمية الأخرى تنشر الفصول المسهبة عن مصر والمسألة المصرية.

وكان للمقالة ولحملة الفقيد عامة صدى في البرلمان البريطاني، فانبرى بعض النواب الأحرار يلقون على اللورد كرومر تبعة الحادثة، ويستنكرون المحاكمة

والتنفيذ، وتغير الموقف حيال الحادثة، فقد كان السير «إدوارد جراي» وزير خارجية إنجلترا قد أسكت البرلمان بتصريح له يوم (٥ يولية سنة ١٩٠٧م)، إذ طلب بلهجة شديدة وعد البحث في مسألة دنشواي بحجة أن التعصب الديني ضارب أطنابه في مصر، وأنه لولاه لما وقع الاعتداء على الضباط الإنجليز. ومرت فترة جمود بعد هذا التصريح؛ ولكن لم يكد صوت مصطفى كامل يدوي في أوربا استنكارًا لفظائع الاحتلال في الحادثة حتى أعلن بعض النواب الأحرار أنهم لا يقيدون أنفسهم بالسكوت في مسألة تهم الإنسانية والعدالة وشرف إنجلترا، وقد ساعدهم على الخروج من صمتهم أن مصطفى كامل قد نفى بحجج بليغة تهمة التعصب الديني عن المصريين.

مصطفى كامل في لندن

بعد أن نشر الفقيد مقالته عن حادثة دنشواي في جريدة الفيجارو، قصد لندن ليستمر في نضاله، وليرفع صوت مصر في عاصمة الدولة المحتلة، فوصلها يوم (١٤ يولية)، وكان يقصد مقابلة رجال السياسة وحملة الأقلام، لتفهيمهم الحقائق عن مصر ودحض المفتريات التي كان يذيعها دعاة السوء عن الأمة المصرية من رميها بالتعصب الديني وأخذها بالشدة.

كتب في هذا الصدد تحت عنوان (ارفعوا أصواتكم)[1] قال: «لقد لبثت أمة الإنجليز عدة سنوات تعتقد فيما تنشره الصحف عنها ويقوله السياسيون لها أن الأمة المصرية فرحة بالاحتلال، حتى حدثت حادثة دنشواي واهتزت لها المملكة البريطانية كلها، وتساءل القوم في كل نادٍ: «إذًا الأمة المصرية غير فرحة بالاحتلال». نعم إن الأمة المصرية نافرة من الاحتلال، ومن واجبات المصريين أن يعلنوا أسباب ذلك النفور ويقولوا بأعلى أصواتهم أن أكبرها وأهمها ضياع استقلالنا؛ ذلك الاستقلال

(١) «اللواء» عدد ٢٦ يولية سنة (١٩٠٦م).

الذي أخذته إنجلترا وأقسمت أن ترده إلينا قويًّا مصانًا لا يستطيع أحد أن يمسه بسوء، ليقل المصريون للأمة الإنجليزية: إنه إذا كان ساستها قد نسوا أو تناسوا عهودهم ووعودهم، فإننا معشر المصريين لم ننسها، ليقولوا بحرية وصراحة واستقلال كل ما يعتقدون وما به يشعرون، حتى تعلم الأمم كلها أنهم أحياء يناضلون عن حقوقهم، ولا يقبلون المذلة والعار».

وصل مصطفى كامل إلى لندن، وقابل الكثيرين من رجال السياسة وأعضاء البرلمان البريطاني والصحفيين، وحادثهم في حادثة دنشواي وحوادث مصر وساسة إنجلترا فيها، ومطالب المصريين، ونفى عنهم تهمة التعصب الديني التي كان يروجها ضدهم، دعاة السوء، وانتهز فرصة هذه الحادثة ليرفع صوت مصر عاليًا مطالبًا باستقلالها، فهو لم يحصر دعايته في الحادثة بذاتها؛ بل وسع نطاق الجهاد واتخذها سبيلًا للمناداة بحقوق مصر واستقلالها، وترجم مقالته (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) إلى الإنجليزية، ووزعها على جميع الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحافة.

حديثه في جريدة الديلي كرونكل

ونشرت جريدة (الديل كرونكل) حديثًا له في عددها الصادر يوم (٢٠ يولية سنة ١٩٠٦م) وقدمت له بمقدمة قالت فيها:

«وفد مصطفى باشا كامل رئيس الحزب الوطني في مصر إلى لندن أخيرًا بقصد عرض مقاصد وسياسة مواطنيه المحبين لبلادهم على الأمة الإنجليزية، وهو شاب مصري متعلم تعليمًا أوربيًّا عاليًا بحيث يصعب تمييز الفرنسي المتعلم تعليمًا عاليًا، والمتربي تربية سامية عنه، سواء في المعرفة والعلم واللغة أو الأفكار بوجه عام، وهو صاحب ومحرر جريدة عربية تصدر في القاهرة تسمى (اللواء)، وهي أهم الصحف العربية وفي مقدمة الصحف التي تعد لسان حال السواد الأعظم من المصريين الذين مبدؤهم «مصر للمصريين».

ثم نشرت الحديث، وهو يدور حول دحض تهمة التعصب الديني التي أراد خصوم الحركة الوطنية أن يصفوها به، وبرهن على تسامح المصريين الديني، وعرج على حادثة دنشواي وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها، ثم سأله محرر الجريدة عن برنامج الحزب الوطني، فأجاب: «بأن أول غرض يرمي إليه هو طبعًا العمل لاستقلال مصر، وقد وعدت الحكومة الإنجليزية المرة بعد المرة وعدًا مقدسًا سواء في البرلمان أو في المكاتبات الرسمية بأن ترد مصر للمصريين، وبقطع النظر عن هذه الوعود فإن المصريين عامة متحدون في طلب الاستقلال، وهل تظنون أن أي إنجليزي يستطيع أن يتحمل ضياع حريته وفقدانها كما نتحمل نحن ذلك الآن؟ لا شك أن لا يوجد إنجليزي يحتمل ذلك».

وختم حديثه بقوله: «إننا نطلب استقلالًا أهليًّا ودستورًا حرًّا، ولقد نالت مصر في عهد الخديوي توفيق باشا برلمانًا، وهذا البرلمان قد انحل لما دخل الإنجليز بلادنا، ولكن اللورد «دفرين» وعد عام (١٨٨٣م) بتشكيل برلمان جديد، ولم يتم شيء من هذا الوعد إلى الآن! بل إن اللورد كرومر تمكن من جمع سلطات الحكومة كلها في قبضة يده وأخذ يحكمنا كملك مطلق التصرف بمعناه الحقيقي، ولا ريب في أن مطالبنا يعلمها الإنجليز الذين يحبون الحرية».

احتفال الشرقيين بالفقيد في لندن

أعجب الشرقيون عامة بدفاع الفقيد عن قضية مصر واستقلالها وكرامتها، وأكبروا فيه البطولة والإقدام؛ إذ رأوه يجوب العواصم ويرفع صوت مصر جهيرًا عاليًا في أوربا وإنجلترا، ورأوا في جهاده مفخرة لكل شرقي، فلما جاء لندن أقامت جمعية الوحدة الإسلامية الهندية حفلة كبرى لتكريمه يوم (٢٤ يولية سنة ١٩٠٦م) بفندق (كربتريون)، حضرها لفيف من عظماء الشرقيين والإنجليز، نذكر منهم السيد عبد الله المأمون السهروردي رئيس الجمعية، وعبد الحق حامد بك أشهر شعراء الترك، والمستر «بيلس» من أعضاء مجلس العموم، والسير «بهاونجري» من كبار

الهندوكيين، ونائب الهنود في لندن، والمستر «سويني» رئيس الجمعية الوطنية، والمستر «باندیت کرشنا فرما» رئيس جمعية استقلال الهند، والمستر «كارل بلند» الكاتب الشهير، وغيرهم، وحضرها كثير من صفوة الشبيبة المصرية والشرقية، وبلغ عدد الحاضرين نحو (٢٥٠) مدعوًّا من علية القوم، فكانت من أفخم الحفلات، واستقبل فيها الفقيد بأعظم مظاهرة الحفاوة والإجلال.

ولما اكتمل الجمع وقف صاحب الدعوة السيد السهروردي، وألقى بالعربية خطبة حيى فيها صاحب الترجمة؛ قال:

«إن أفئدتنا لم تبتهج فرحًا لزيارة أمير أو وال من ولاة الإسلام بمقدار ابتهاجنا بزيارة سعادتكم لهذه البلاد؛ لأنكم أمير أمراء الوطنية، وأسد غابة الحرية، وبطل المدافعين عن حقوق الإنسانية، ولقد أحسنتم في قدومكم إلى هنا بقصد إيقاف الأمة الإنجليزية على حقيقة الشئون المصرية وأغراض وآمال مطالب المسلمين، وإني أؤمل بل وأثق بإصغاء الإنجليز لنداء المسلمين، وأن لا يجعلوا للتعصب الديني والتحامل سلطانًا على شعورهم دون العدالة والاستقامة، وإذا فرض ولم تصلوا إلى بغيتكم هذه، فإن ذلك لا يثبط من همتكم ولا يفت في عضدكم، فإن زيارتكم لإنجلترا لا تخلو من فائدة قط؛ لأن صوتكم لا يصل من عاصمة هذه الدولة إلى إخوانكم في الدين في أقصى أنحاء المعمورة فقط؛ بل سيجد له صدى في قلوب محبي الأوطان في الممالك الأخرى الذين هم شركاؤكم في الآلام والمصائب، ودولة الوطنية أوسع من دولة الإسلام، فلتعد إلى بلادك المحبوبة ولتستمر في جهادك في سبيل الحرية، واذكر في ساعة اليأس والقنوط والضيق أنك لست منفردًا وحدك؛ بل إن أسمى آمال القاطنين على ضفاف نهر الرين والطونه (الدانوب) والجانج والفرات والبوسفور وقرن الذهب، تشارك ابن وادي النيل في مساعيه، وإن أعينهم لمتجهة نحو أفق مصر،

منتظرة بزوغ فجر الحرية وصدور الإشارة من أرض الفراعنة الأولين، بإنقاذ أبناء إسماعيل[١] ودخول المصريين في الحرية التي وعدوا بها.

ولقد تغلب لساني على جناني، فألقيت عليكم أيها السادة باللغة العربية؛ مع العلم بأن السكوت في حضرة ديموستين[٢] مصر هو أفضل بلاغة وأحسن بيان».

خطبة صاحب الترجمة

فوقف صاحب الترجمة وألقى باللغة العربية كلمة شكر قال فيها:

«أيتها السيدات، أيها السادة:

اسمحوا لي أن أشكركم من صميم فؤادي شكرًا لا يوفيه اللسان، ولا يؤديه البيان على تفضلكم بالاجتماع هنا للتسليم علي ومقابلة أعمالي الصغيرة بعنايتكم ورعايتكم وانعطافكم، وإني شعرت في كل وقت بعدم استحقاقي لشيءٍ من ذلك كله؛ لأنَّ القيام ببعض الواجب -وما أنا قائم به كله- جزء من فرض مقدس لا يشكر الإنسان عليه؛ ولكنكم أردتم أن تحيوا في شخصي المصريين المحبين لبلادهم العاملين لرفعتها المتشوقين لاستقلالها المغرمين بالدستور والحرية، ولذلك أستقبل مظاهرتكم السامية بجزيل الشكران، وأسألكم باسمهم أن تعتقدوا أننا لا ننسى أبد الدهر هذه العواطف التي أبديتموها بحضوركم إلى هذا النادي، وازدحامكم إلى هذا الحد الذي لم يكن يخطر لي على بالٍ، وإني أشكر بنوع خاص خضرة السيد عبد الله المأمون السهروردي الذي رأيت فيه من الحمية والغيرة ما ملأ قلبي سرورًا، وزاد في قوة آمالي، وأرجوه أن يعذرني في عدم توفيته حق الشكر على ما قاله؛ لأن العجز عن الشكر أبلغ شكر.

---

(١) العرب.

(٢) أحد كبار خطباء البرلمان.

إني عندما حضرت إلى لندن لم أكن أحلم بحضور اجتماع كهذا، أرى فيه أمم الإسلام والعرب ممثلة في آنٍ واحدٍ، وأخاطب فيه الإنسانية في أبنائها الراقين النابغين، فترونني أعد هذه الليلة وحيدة في العمر، جديرة بالذكر أبد الدهر».

ثم تكلم طويلًا عن الأمم الإسلامية والشرقية، ونوَّه بواجب المتعلمين في إنهاضها والأخذ بيدها في سبيل التقدم والحرية، وعرج على نهضة مصر وأمله في فوزها، ثم قال: «وإني واثق بفوزها القريب العاجل، وظهورها بين أمم الأرض بأرقى مظهر، كما أني على يقين من أن محبي الإنسانية والمدنية الصادقين في حبها يميلون بكل جوارحهم إلى هذا الفوز، ويساعدون على الوصول إليه غير ناظرين إلى الاعتبارات الصغيرة الدنيئة التي يقيمها ذو الغايات في طريق الأمم الناهضة».

وكرر في ختام خطبته شكره على الحفاوة البالغة التي قوبل بها، ولم يكد يتم خطبته حتى دوَّت القاعةُ بتصفيق الإعجاب من كل جانبٍ، ووقف السيد عبد الله السهروردي فترجم خطابه إلى الإنجليزية.

ثم وقف الدكتو «بولن» من كبار المستشرقين وألقى خطبة أعرب فيها عن مزيد إعجابه بخطبة صاحب الترجمة، وقال: «إنه وإن كان الكثيرون من الحاضرين لم يستطيعوا تتبع معاني كلمات الخطيب كلمة كلمة؛ إلا أنهم جميعًا شعروا بأنهم إنما كانوا منصتين لخطيب نادر المثال والقوة والكفاءة، وأنهم تأثروا من حسن اقتداره الواضح وشدة إخلاصه ورنات لهجة اللسان الجليل الذي كان يخطب به، لسان النبي إسماعيل».

وأفاض في ذكر محامد الإسلام وفضائل النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ثم وقف المستر (بندت كرشنافارما) أحد علماء الهنود، وزعيم جمعية استقلال الهند ومحرر صحيفة (إنديان سوسيولوجست) وأثنى على صاحب الترجمة ثناءً كبيرًا، وأعقبه الماجور السيد حسين بلجرامي وألقى كلمة شكره فيها على جهاده.

وبعد أن انتهى الخطباء من خطبهم وقف المترجم وألقى باللغة الفرنسية كلمة شكر ثانية؛ قال فيها:

«أيتها السيدات، أيها السادة:

إني أكرر لكم جزيل شكري على هذه الرعاية البالغة والإكرام العظيم، وإني رغمًا عن كل ما قاله الخطباء العظماء لا أعتبر هذه الحفاوة موجهة إلى شخصي؛ بل أعتبرها موجهة إلى أبناء جنسي وإلى الشعور الوطني الذي يدفعنا على الدوام لخدمة مصر بما في الوسع والإمكان.

وإن الوطنية لشعور تنحني أمامه الأمم كلها والأجناس على اختلافها؛ لأنه الشعور بقيمة الإنسان وكرامته، الشعور بنعمة الله وعنايته، الشعور بمعنى الوجود نفسه، وسواء كان الرجل يابانيًّا أو صينيًّا أو هنديًّا أو جاويًّا أو مصريًّا أو إنجليزيًّا أو فرنسيًّا أو ألمانيًّا، أو من أي جنس كان، فإنه يقابل بالإعظام متى كان ممثلًا للشعور الوطني؛ لأنه حامل لأطهر وأشرف شعور رفع الإنسان إلى أعلى مكان، وإني لست إلا حاملًا للواء الوطنية، وقد تفضلتم هذه الليلة بتكريم هذا اللواء وتشريفه، فأشكركم باسمه شكرًا وافرًا، وأسأل الله أن يوفقنا إلى تحقيق آمالنا العزيزة وإسعاد أوطاننا المحبوبة».

وكانت هذه الحفلة من أعظم ما لقيه الفقيد تكريمًا لجهاده في سبيل مصر.

وليمة (كارلتون) وخطبة المترجم

وأقام المترجم وليمة فاخرة بلندن في فندق كارلتون يوم (الخميس ٢٦ يولية سنة ١٩٠٦م)، دعا إليها بعض الشخصيات ذات النفوذ في المحيط السياسي البريطاني، من أعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم والصحفيين، وبعد أن تناولوا الطعام وقف خطيبًا، وألقى بالفرنسية خطبة جامعة، بدأها بقوله:

«أيها السادة: اسمحوا لي أن أشكركم على الشرف الذي أوليتموني إياه بقبولكم دعوتي، وإني لسعيد حقًّا بانتهاز هذه الفرصة لأحدثكم في شئون مصر وإعلان الحقيقة عن عواطف المصريين وأفكارهم، وإن ذوي الأغراض ينشرون على الدوام في أوربا عامة وفي إنجلترا خاصة الأغلاط والأكاذيب بشأن أحوال مصر، وإحساسات المصريين؛ ولكننا واثقون من أن الحقيقة القادرة القاهرة تتغلب في النهاية دائمًا وتفوز وتهدم هذه الأبنية؛ أبنية الاختلافات والتهم الكاذبة».

الاستقلال والمال

وبعد أن نفى عن المصريين تهمة التعصب الديني تكلم عن الاستقلال فقال: «إن الحركة الموجودة في مصر حقيقة هي حركة وطنية أهلية لا نزاع فيها، فإن الشعب المصري متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك، وإذا كان بعض الساسة الإنجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود والعهود التي قطعها رجالكم السياسيون علنًا، ونادوا فيها برد مصر إلى المصريين، فإننا لم ننسها نحن أبدًا؛ بل لا يزال كل مصري يكررها وسيكررها على الدوام، عالمًا بأنه لا تسقط العهود المعطاة وكلمة الشرف «بمضي المدة» قائلًا مع اللورد فرين: «إن الاستقلال لا ثمن له».

ولو فرضنا ولم تكن هذه الوعود والعهود قدمت فعلًا من رجال سياستكم، فأي مطلب وأي غرض يرمي المصري إليه؟ أليس استقلال بلاده؟! لقد ألقت الحالة المالية في مصر على عيون الكثيرين من الناس هنا غشاوة، فتراهم مندهشين من أن المصريين غير سعداء في عهد الاحتلال، وإن السامع لأقوالهم ليحسب مصر «سوقًا» لا وطنًا، فأرجوهم أن ينظروا إلى الأشياء بإمعان، ويدرسوا الحالة الأدبية لمصر ويدركوا على الخصوص أنه لا توجد ثروة في العالم ولا رخاء ينسي الإنسان كرامته».

السودان

ثم تكلم عن السودان فقال:

«وإنه لكي يدرك الإنسان أسباب تألم المصريين من الاحتلال الإنجليزي يجب عليه أن يتذكر أولًا أن السياسة البريطانية نزعت منا السودان ظلمًا، وهو روح وطننا، وكم ضحينا فيه من الأموال والرجال، فليس لمصر الآن فيه إلا مهمة واحدة وهي إعطاؤه جيشًا لتسكينه وتنظيمه، والمال اللازم لإدارته، وإن فؤاد كل مصر ليمتلئ حزنًا وأسى عندما يفكر في هذا الجزء من وادي النيل المحكوم على حدة، المسلوب من مصر، السائدة فيه إنجلترا».

ثم تكلم عن محو الحكومة الأهلية في مصر، ورد على اللورد كرومر وطعن في سياسة الاحتلال عامة في مصر، وتكلم عن حادثة دنشواي وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها، واحتج على وجود المحكمة المخصوصة، وطلب إعادة النظر في القضية.

الامتيازات الأجنبية

وتكلم عن الامتيازات الأجنبية فقال:

«إن من المسائل المرتبطة بالعدالة مسألة محاكمة المجرمين الأجانب في مصر، فإن المصريين ينفعلون ويسخطون كلما أفلت مجرم أجنبي من يد القانون المصري بفضل الامتيازات الأجنبية، وقد اقترح اللورد كرومر محوها وإنشاء مجلس دولي يعطى سلطة التشريع بحيث تمنح أوربا الدولة البريطانية وكالة عنها في مصر، وهذا الاقتراح لا يقبل من أوربا، ولكن هناك حلًّا عمليًّا للمسألة؛ وهو إعطاء المحاكم المختلطة حق النظر في الجنايات والجنح التي يرتكبها الأجانب، وإن هذه المحاكم حائزة لثقة العموم، وإنني أعتقد أن أوربا لا تتردد في إجابة هذا الطلب العادل إذا عرض عليها».

الدستور وحقوق المصريين

«لم ينس أحد من الناس أن مصر طلبت الدستور في خلال ثورة سنة (١٨٨٢م) ونالته، ولكن إنجلترا أبطلته ووعدت بلسان اللورد دفرين بإعادته لمصر متى حانت الفرصة، وقد مضى أربعة وعشرون عامًا ونحن في انتظار هذا الدستور، ويلاحظ بأشد الألم والحزن أن السلطة المطلقة لمعتمد بريطانيا في مصر تمتد كل يوم وتنمو، وأنه لا يوجد شيء يضمن للمصريين السكينة والسلام والعدالة والسير الحسن لكافة الأعمال سوى دستور قوي متين يعطي الشعب حق مراقبة الحكومة في أعمالها وتصرفاتها، وإن مصر لأوفر تقدمًا ومدنية من بعض إمارات البلقان التي منحتها الدول الأوربية وإنجلترا على رأسها الحرية، وإن كل ثروات العالم لا تنسينا أبدًا كرامتنا وحقوقنا، ولقد كان من مصلحة إنجلترا تقدم مصر ماليًّا لتنال ثقة حملة أسهم الدين المصري، ولتستطيع فتح السودان وتعميره بأموال مصر؛ ولكنها لم تنفذ التعهدات التي أخذتها على نفسها بشأن التقدم المعنوي للمصريين.

فمعارضة الوطنيين المصريين للاحتلال طبيعية ولا غرابة فيها، وإذا كان القوم المتمدنون يجدون من الأمور العادية الطبيعية وجود حزب معارضة في إنجلترا وفي بقية البلاد المتمدنة، فأي عجب في وجوده في مصر؟! وإذا كان أنصار التوسع في سلطة إنجلترا ومد نفوذها في الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة في كل مكان، فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا؟!

إنَّ إنجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها؛ بل دخلتها كدولة محبة لتوطيد عرش الخديوية ومساعدة الشعب المصري على أن يعيش عيشة الأمم المتمدنة، فهي عقدت بإرادتها ومحض رغبتها دينًا على نفسها نحو مصر ونحو الإنسانية، فمصر لا تسأل إحسانًا بمطالبتها بحريتها؛ بل تطلب حقًّا معترفًا به ولا نزاع فيه، تطلب حقها في الحياة والوجود، وإني على يقين من أنكم لو كنتم محلنا لشعرتم بنفس شعورنا، ولسلكتم

مسلكنا؛ لأنه لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان؛ ألا وهو استقلال الوطن وعظمته».

وما انتهى الخطيب من خطبته حتى دوى التصفيق في القاعة كلها، وقام المستر «جون روبرتسن» النائب الحر بمجلس العموم الإنجليزي، ورد على خطبته بكلمة هي مزيج من تأييد الخطيب والدفاع عن وجهة النظر الإنجليزية، قال:

«يا حضرة الباشا:

إني أتكلم باسم زملائي وأبناء وطني لأؤكد لكم أننا سمعنا خطبتكم باهتمام ممزوج بالعطف، وأننا نبحث قبل كل شيء عن معرفة حقيقة الأحوال في بلادكم، ولذلك نريد أن نسمع صوت الجهتين (أي المصريين والإنجليز)، وإننا نؤمل أن أبناء وطنكم يخاطبوننا دائمًا بصراحة ويعرفوننا أفكارهم وشكاويهم؛ لأن مقصدنا وغرضنا هو خير مصر ليس إلا بمراقبة الإدارة العمومية ما دام لنا نفوذ فيها، وما دمنا محتلين البلاد، ومن رأينا أن المراقبة الإنجليزية أفادت المالية المصرية كثيرًا، وإنا نريد أن نفعل مثل ذلك في الحياة الاجتماعية والتربية والإدارة والعدالة؛ إذ يجب أن لا تبقى إنجلترا هناك لمصلحتها نفسها.

أما مسألة دنشواي فإنكم يا حضرة الباشا تعرفون جيدًا مقدار القلق الذي قوبلت به أخبارها، وإننا لا يمكننا أن نتكلم في هذا الصدد ما دمنا لم نر التقارير الرسمية؛ ولكن يمكنني أن أؤكد لكم وجود الانعطاف الفعلي الخالص من قبل العدد الأكبر والأعظم من الشعب البريطاني، وإننا نقدر آمالكم ومطالبكم حق قدرها، ونؤمل على الدوام أن نرى يومًا بفضل التبصر والتدبر تحقيق بغية الإنجليز والمصريين، وأتمنى لها: الاستقلال المضمون لمصر».

وقد كان لهذه الوليمة وخطبة الفقيد فيها دوي هائل في مصر، ونالت إعجاب الرأي العام؛ إذ أكبرت الأمة من زعيمها المجاهرة بحقوق مصر في العاصمة البريطانية، وبين جمع من كبار الإنجليز، ونفدت نسخ «اللواء» الذي نشرت فيه

الخطبة، وانهالت الطلبات على إدارته بطبعها في كراسة على حدة، وتوزيعها على الجمهور، كما تلقى «اللواء» تلغرافات ورسائل عديدة بتأييد موقف الفقيد والإعجاب بجهاده، وزادهم إعجابًا به أنه قام يناضل بمفرده عن حقوق بلاده، ويرفع صوت مصر في عواصم أوربا، ويقوم بعمل كان يجب على رجالات الأمة أن يشاركوه فيه ويحتملوا معه عبئه.

مغادرته لندن، وسفره إلى فيشى

أجهد الفقيد صحته في نضاله صيف سنة (١٩٠٦م)، فغادر لندن وقصد إلى فيشى للاستشفاء، وهناك استقبله المصريون المصطافون بها بالحفاوة البالغة والحماسة، وهنأوه على فوزه في جهاده، وكان في حاجة إلى الراحة بعد العناء. على أنه لم يترك الكتابة والدفاع عن قضية مصر، فما أن رأى في جريدة (الديلي جرافيك) الإنجليزية مقالة عن المسألة المصرية زعمت فيها أن المصريين يعملون على تغيير النير الإنجليزي بالنير التركي، حتى انبرى للرد عليها بمقالة عنوانها (مصر للمصريين) نشرت في عدد (١٥ أغسطس سنة ١٩٠٦م)، فند فيها هذه المزاعم، وصرح «بأننا نريد أن تكون «مصر للمصريين» ونرفض قطعيًّا كل نير أجنبي وكل سيادة أجنبية، وإن الذين يظنون أن الشعب المصري يمقت إنجلترا لأنها دولة مسيحية ليسوا إلا مخطئين خطئًا جسيمًا، فإن الشعب المصري يمقت المحتل الذي قوض دعائم استقلال وطنه، وإذا كانت مصر محتلة بأي دولة أخرى لكان شعور المصريين هو ذاته؛ لأن ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأي حال من الأحوال».

وقد كتب هذه المقالة وهو في حاجة إلى العلاج والاستشفاء في فيشى؛ ولكنه لم يكن يعرف لنفسه راحة وهوادة إلى جانب أداء الواجب نحو الوطن.

عودته إلى مصر

أكبرت الأمة جهاد المترجم أثناء مقامه في أوربا صيف سنة (١٩٠٦م)؛ فسرت في النفوس فكرة الاحتفال به عند عودته تكريمًا له؛ إذ رفع صوت مصر عاليًا، ورفع رأس الأمة في أوربا والعالم، وتألفت لجنة في (أغسطس سنة ١٩٠٦م) بدعوة من المغفور له «محمد بك فريد» لجمع اكتتاب عام لهذا الغرض ودعوته إلى وليمة كبرى عند رجوعه وإهدائه هدية فاخرة إعرابًا له عن تكريمه. وبدأت اللجنة بجمع الاكتتابات، فلما علم الفقيد بنبأ هذا المشروع أرسل من باريس خطابًا بتاريخ (٢٤ سبتمبر) إلى فريد بك يعتذر فيه من عدم قبول هذا التكريم، وبطلب أن تقوم اللجنة بدعوة الأمة إلى إنشاء كلية (جامعة) أهلية، وأن تتحد الجهود لتنفيذ هذا المشروع، وهذا الخطاب آية في الوطنية والشعور الشريف. (وقد نشرناه بالزنكجراف ص٢٣٦)؛ قال فيه:

«عزيزي فريد بك:

تحية وسلامًا واحترامًا وإعظامًا، وبعد فقد طالعت اليوم في (اللواء) بعد عودتي من «هنداي» أنه تأسست لجنة في مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتي إلى وليمة وإهدائي هدية إعلانًا لارتياح المصريين من قيامي بخدمة بلادي العزيزة، وأنك تفضلت فقبلت أن تكون أمينًا لصندوق هذه اللجنة.

فاسمح لي أن أرجو منك أن تتنازل بتبليغ أعضاء هذه اللجنة ومن تكرموا بتلبية دعوتها أني أشكرهم من صميم فؤادي على جميل انعطافهم نحو أضعف خَدَمة الوطن، وجزيل رعايتهم نحو رجل لا يرى فيما علم إلا جزءًا من واجب عظيم جسيم يُطالب كل مصري بتأديته.

وإني ما شعرت لحظة واحدة في حياتي بأني مستحق لشيءٍ من الالتفات أو الشكر على دفاعي عن حقوق مصر ومطالبتي باستقلالها ومناداتي بوطنية أبنائها؛ لأني إنما

أقوم بفرض مقدس، وما خطوت إلى اليوم الخطوة الأولى في سبيل إسعاد مصرنا العزيزة التي امتلأت رحابها بعظام الآباء والأجداد.

وأي فضل لمثلي وأصغر جندي في الجيوش يلقي علينا جميعًا أكبر درس وأسمى عظمة؛ لأنه الحامل لراية الوطن المدافع عن شرفه ومجده واستقلاله، المفدي لحياته صيانة لحياة الملايين من الشيوخ والنساء والأطفال.

فإذا كان هذا شأن كل فرد من أفراد الجيوش ووظيفة كل جندي من جنودها، فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة وعظيمة نحن الذين استفدنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا، وامتزنا بالعلم والعرفان، وقدرنا حقوق الديار، ورأينا نور الحقيقة ساطعًا أمامنا، وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية وقارنا بين حالهم وحالنا وتقدمهم وتأخرنا.

شكرًا لكم وألف مرة شكرًا؛ ولكني لا أستطيع أن أقبل ثناءً لا أستحقه وإكرامًا لم أفعل شيئًا لنيله، ولا يمكنني أن أرضى بأن يكون الشعور الوطني مما يكافأ الرجل عليه، وهو لا يكون رجلًا إلا به.

نعم إني أعلم أنكم تحيون في شخصي الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة، وتريدون أن تعلوا شأنها، وترفعوا لواءها، كما أن أعدائي والطاعنين علي إنما يحاربون في الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور؛ لأني لست شيئًا؛ على حين أن الوطنية هي في حياة الأمة كل شيء.

ولكن ما تبتغون كائن لا ريب فيه، فقد ارتفع لواء الوطنية المصرية رغمًا عن كل معاند ومعارض، وعلم العالم كله أن المصريين أحياء يشعرون ويرغبون المجد من السبل الصالحة المؤدية إليه، واقتنعت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور والحرية بالعقل والروية، ونسعى إلى إسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانوني، وهي نتيجة ما كان ليصدق أعداء مصر والمصريين أنها تكون بعد أن ظن الجاهلون بأسرار حياة الأمم وارتقائها أن مسألة استقلال مصر قد قبرت واستراح ساسة الإنجليز منها.

فخير هدية أقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هي أن تقوم اللجنة التي شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصري لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، وتهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون في عداد خدامها المخلصين ممن لا يخافون في الحق لومًا ولا عتابًا، ويعملون لمداواة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية في كافة أبنائها؛ لأن كل مليم يزيد على حاجة المصري ولا ينفق في سبيل التعليم هو ضائع سُدى، والأمة محرومة منه بغير حق.

هذه هي الهدية الوحيدة التي يليق بالوطنيين الصادقين إهداؤها لمصر والمصريين، هذه هي الهدية الفريدة التي تملأ الفؤاد فرحًا وانشراحًا وفيها أرقى مظاهر الحياة والشعور.

فلتنس الأحزاب انقساماتها، ولينس الصحافيون خصوماتهم، ولتلق الأحقاد (ولو يومًا واحدًا) في هوة لا يسمع منها لغو ولا دوي، ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الفخم، وتحقيق ذلك المشروع الذي كله خير ونفع عميم.

وليذكر الذاكرون أن بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال في وجوههم أبواب العلم والنور رءوسًا لو تحلت بالعرفان لكانت فخار مصر إلى أبد الزمان، ليذكر ذوو الإحساس والوجدان أن في مصر كنوزًا لم تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس لملأت الأرض نورًا، وأن هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء. إن الكلية – الجامعة– هي البناء الذي أدعو المصريين جميعًا إلى تشييده، وما أكبر سعدي وأعظم هنائي لو ساعدتني الأيام على وضع حجر فيه مع العملة الأبرار الذين يعملون لخير البلاد ليس إلا، ولا يسألون أحدًا (جزاءً ولا شكورًا). هذا وأرجوك أيها الصديق أن تتفضل بقبول أصدق سلام وأوفى احترام من محبك وأخيك».

باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦م

مصطفى كامل

(خطاب الفقيد إلى فريد بك ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦م)

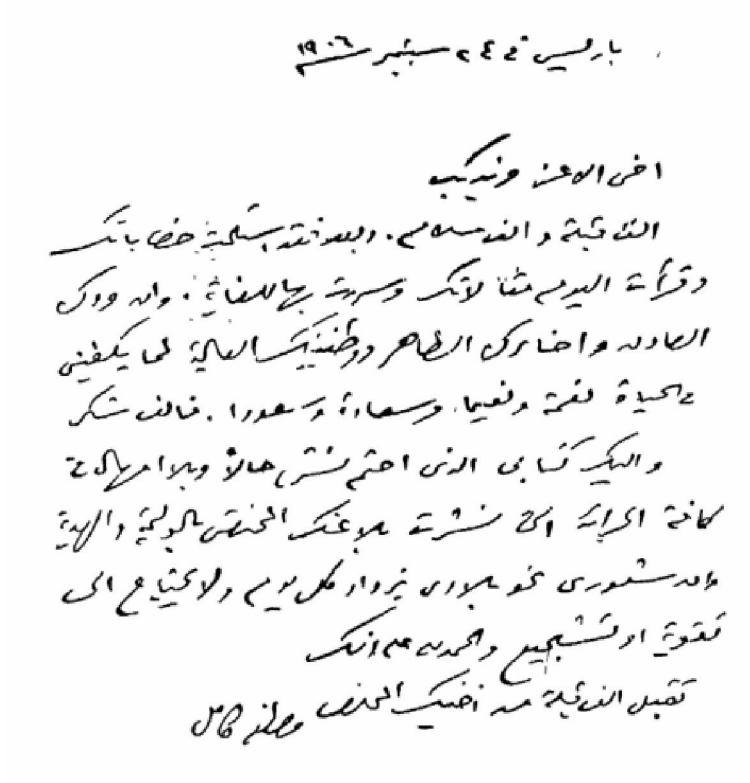

عزيزي فريد بك

تحية وسلاما، واحتراما واعظاما. وبعد فقد طالعت
اليوم في اللواء بعد عنوان من "هنداوي" أن ثمة لجنة في
مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتي الى وليمة واهدائي هدية
اعترافا لارشادي المصريين مدة قيامي بخدمة بلادي العزيزة. وإذ
تفضلت فقبلت أن تكون أمين صندوق هذه اللجنة

فاسمح لي أن أرجوك أن تتنازل بتبليغ أعضاء هذه
اللجنة - ومن تكرموا بتلبية دعوتها - أني أشكرهم من صميم فؤادي
على جميل احساسهم نحو أضعف خدمة الوطن العزيز وجزيل
رعايتهم نحو رجل لا يرى فيما عمل الا جزءاً من واجب عظيم
جسيم يطالب كل مصري بتأديته

واني ما شعرت لحظة واحدة في حياتي بأني مستحق لشيء
من الالتفات أو بشكر على دفاعي عن حقوق مصر ومطالبتي
باستقلالها ومنافعها الوطنية أينما حللت. لأني انا أقوم بفرض
مقدس، وما خطوت الى اليوم الخطوة الأولى في سبيل اسعاد
مصرنا العزيزة التي امتلأت صحائفها بعظائم الآباء والأجداد!
وأي فضل لشاب مثلي وأصغر جندي في الجيش يطلب علينا جميعا
أكبر رئيس وأسمى قائد. لأنه الحامل لراية الوطن الدافع عن
شرفه وحقه واستقلاله المعتز بحياته صيانة لحياة الملايين
من الشيوخ والنساء والأطفال

فإذا كان هذا شأن كل فرد من أفراد الجيوش ووظيفة
كل جندي من جنودها، فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة
وخطيرة؟ نحن الذين استفدنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا
وامتزنا بالعلم والعرفان وقدرنا حقوق الديار ورأينا نور
الحقيقة ساطعاً أمامنا وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية
وقارنا بين حالهم وحالنا وتقدمهم وتأخرنا

شكراً لكم وألف ألف شكر! ولكني لا أستطيع أن
أقبل ثناءكم إلا استحساناً وإكراماً لم أفعل شيئاً لنيله، ولو
تمكنني أن أرضى بأن يكون الشعور الوطني مما يكافأ الرجل
عليه وهو لا يكون إلا واجباً

نعم إني أعلم أنكم تحيون في شخصي الضعيف الفكرة
الوطنية الشريفة وتريدون أن تقولوا شيئاً عظيماً وترفعوا لواءها
كما أن أعدائي والطاعنين علي إنما يحاربون في الحقيقة هذه
الفكرة وذلك الشعور. لأني لست شيئاً على جنب أن
الوطنية هي في حياة الأمة كل شيء

ولكنكم تحتفلون بأمر كائن لا ريب فيه. فقد ارتفع لواء الوطنية
المصرية رغماً عن كل معاند ومعارض وعلم العالم كله أن المصريين
أحياء يشعرون ويرغبون المجد من السبل الصالحة المؤدية إليه
واقتنعت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور والحرية
بالعقل والروية ونسعى إلى إسعاد وطننا بالعلم وبجلال
القانون. وهي نتيجة ما كان ليصدقه أعداء مصر والمصريين

انكم تكونون قد أثبتم لظن الجاهلين بأسرار حياة الأمم
وارتقائها أن مسألة استقلال مصر قد ثبتت واستراح
ساسة الإنكليز منها

تحية جديدة أقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز وللأمة
المصرية المحبوبة هي أن تقوم النخبة التي شكلت بدعوة
الأمة كلها وطرقت باب كل مصري لتأسيس كلية أهلية
تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء وترحب بمعونة
الرجال الأشداء الذين يكثرون في عداد حزب
المخلصين ممن لا تجيء منهم في كفة ولا أغضابا وتعليمهم بمدارس
أوروبا وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية في كل
أبنائها. لأن كل معلم يزيد عن حاجة المصري ولا ينفق
في سبيل التعليم صرفا كل سنة الأمة محرومة بغيرهم
جنبه من الهدية الوحيدة التي يليق بالوطنية الصادقة
اهداؤها لمصر المحبوبة هي من الهدية الثمينة التي تملأ
الفؤاد فرحا وانشراحا أرض مظاهر الحياة والسعود

فلتنس الأحزاب انقساماتها ولينس كل منا نفسه ومصالحه
ولنتفق الأحقاد ولنكن واحدا في حب لا يسمع مثله للعدو
ولا ودي. ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الفخيم وتحقيق
ذلك المشروع الذي كله خير ونفع عميم

وليتذكر الذاكرون أنه بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال
في وجوههم أبواب العلم والنور رجالا لو تعلموا لكانوا

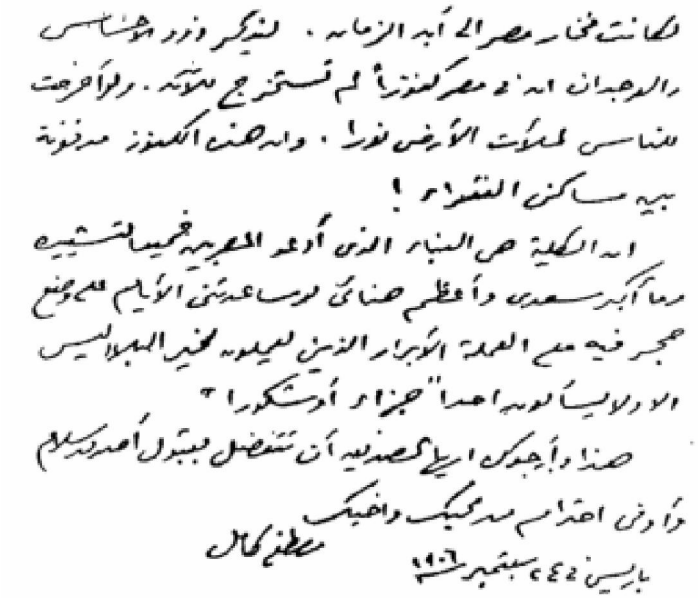

وقد قوبل الخطاب بالارتياح والإعجاب، وتحول المشروع إلى المساهمة في جمع الاكتتابات لتأسيس الجامعة المصرية.

ووصل الفقيد إلى الإسكندرية (صباح يوم الإثنين ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٦م) وقدم توًّا إلى العاصمة بقطار الساعة التاسعة صباحًا؛ فاهتزت مصر لمقدمه، وأخذت الوفود والجماعات والأفراد تؤم دار (اللواء) لتحية الزعيم والإعراب له عن شكر الأمة وإعجابها بجهاده.

نتائج حادثة دنشواي

أسلفنا القول بأن حادثة دنشواي من الحوادث التاريخية التي لا تنسى على مر السنين؛ لما كان لها من الأثر البليغ في تطور الحركة الوطنية، ونريد هنا أن ننتقل من الإجمال إلى التفصيل، فنذكر ما هو ذلك الأثر البليغ، أو بعبارة أخرى ما هي نتائج حادثة دنشواي. وإذا تكلمنا عن نتائج حادثة دنشواي فكأننا نتكلم عن نتائج (جهاد مصطفى كامل في حادثة دنشواي)؛ لأن من الحق أن يقال: إنه لولا هذا الجهاد لما كان

للحادثة من نتيجة سوى تغلغل روح الخضوع والرهبة في نفوس المصريين، وقد كان هذا ما يقصده الاحتلال؛ إذ أراد أن يضرب الحركة الوطنية بانتقام فظيع يلقي الرعب في النفوس ويجعل الأمة تستشعر بسوء المصير لكل من تحدثه نفسه بمقاومة الاحتلال، ولكن جهد مصطفى كامل فوَّت على الإنجليز قصدهم، فكان للحادثة من النتائج غير ما ظنوا وتوقعوا.

١- اشتداد ساعد الحركة الوطنية

فأولى هذه النتائج أن الحركة الوطنية اشتد ساعدها بانضمام جمهرة المصريين إليها؛ إذ شعروا بأن مصطفى كامل كان على حق في جهاده للاستقلال، وأن المصري لا كرامة له حقًّا بإزاء الاحتلال الأجنبي، ولا مراء في أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية.

لقد كان الاحتلال قبل هذه الحادثة مطمئنًا إلى ثقة السواد الأعظم من المزارعين والأعيان في عدله وإنصافه، حتى أن اللورد كرومر كان يعتز بأنه مؤيد من أصحاب «الجلاليب الزرقاء» -يقصد الفلاحين- ولكن حادثة دنشواي كشفت عن حقيقة نيات الاحتلال؛ وهي أنه لا يرضيه من المصري سوى الخضوع والاستسلام، ولا يرضى منه أن يشعر يومًا بالعزة والكرامة، وإذا تحرك فيه هذا الشعور كان جزاؤه الظلم والتنكيل، فالحادثة إذن قد حببت الاستقلال إلى نفوس المصريين، وجعلتهم يعتقدون أن لا كرامة للأمة ولا لأي فرد منها إلا في ظل الاستقلال، وهذا فوز وتأييد للفكرة الوطنية وإخفاق لأنصار الاحتلال وصنائعه.

٢- اهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية

وثمة نتيجة ثانية، وهي اهتمام الصحف الأوربية والإنجليزية بالمسألة المصرية، فقد بدأت تكتب المقالات والرسائل والبحوث المستفيضة عن شئون مصر ومطالبها.

كان الرأي العام في أوربا قبل أن يرفع مصطفى كامل صوت مصر يعتقد أن مصر من البلاد المتأخرة التي لا تفقه معنى الوطنية والاستقلال، وأنها لا تختلف عن بقية المستعمرات التي أعدت لأن تحكمها الدول الأوربية، وكان الظن أن الاحتلال قد استقر في مصر، وأن نظام الحكم الذي وضعه اللورد كرومر قد نجح أيما نجاح، ولكن حادثة دنشواي قد نبهت الأفكار إلى فساد هذا النظام، وإلى أن مصر ساخطة عليه، وأنها تطالب بحريتها واستقلالها؛ فعظم بذلك شأن مصر في نظر العالم، وازداد المصري احترامًا في نظر الأوربيين؛ لأنَّ أوربا لا تحترم إلا الشعوب التي تحرص على حريتها واستقلالها.

٣- تغيير سياسة الاحتلال

وأدركت الحكومة البريطانية أن سياستها في مصر تحتاج إلى تبديل وتعديل واعتزمت إنفاذ هذا التعديل، ولكنها أخذت الأمور بسنة التدريج، كما هي عادتها كلما أرادت تغيير سياستها، وقوام هذا التغيير أن بقاء اللورد كرومر في منصبه أصبح أمرًا غير مرغوب فيه، وأن الاعتماد على خضوع وزارة مصطفى فهمي باشا للسيطرة الإنجليزية لا يفيد الاحتلال في كل الأحوال، وأنه لا بد من إسناد بعض المناصب الرئيسية إلى المصريين وإطلاق يدهم في شئونها، فلعل ثورة الخواطر تهدأ، ويخف الضغط البريطاني على الأداة الحكومية، فيؤدي ذلك إلى تخفيف السخط على الاحتلال.

٤- تأسيس الجامعة المصرية

نعتقد اعتقادًا جازمًا أن تأسيس الجامعة المصرية كان إحدى نتائج حادثة دنشواي، فقد تنبهت الأفكار عقب الحادثة إلى وجوب المساهمة في كل ما ينهض بالأمة ويرقى بها إلى مصاف الأمم الراقية؛ لكي تتحرر من العبودية التي وصلت إليها، فظهر في (أكتوبر سنة ١٩٠٦م)، أي عقب حادثة دنشواي بنحو ثلاثة أشهر،

جماعة على رأسهم سعد زغلول وقاسم أمين، وكانا مستشارين بمحكمة الاستئناف، في تأسيس جامعة مصرية، فإذا لاحظت ما كتبه قاسم أمين عن شعوره نحو تنفيذ الحكم في قضية دنشواي (ص٢١٢) أمكنك أن تدرك أن نفسه قد اتجهت حين عظم وقع الحادثة إلى المساهمة في عملٍ عام ينفع الأمة في جهادها، فاختار العمل لإحياء مشروع الجامعة المصرية.

ويلزمنا تقريرًا للحقائق وإنصافًا للعاملين أن نقول: إنَّ أول من دعا إلى هذا المشروع ومهد له الأفكار هو مصطفى كامل، فقد اقترح في عدد (٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤م) من اللواء إنشاء جامعة مصرية بأموال الأمة؛ قال في هذا الصدد ما يأتي:

«مما لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت في هذا الزمان حقيقة المركز الذي يجب أن يكون لها بين الأمم، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها في مسألة التعليم وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور للعلم بأموالهم ومجهوداتهم، ولكن قد آن لهم أن يفكروا في الوقت الحاضر في عمل جديد، الأمة في أشد الحاجة إليه، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموال الأمة».

وأخذ يبين ضرورة إنفاذ هذا المشروع الجليل، ودعا المفكرين وأصحاب الرأي إلى موافاته بآرائهم فيه، وطرق الوصول إلى تحقيقه.

وفي (يناير سنة ١٩٠٥م) عاود الدعوة إلى المشروع[1]، واقترح أن تسمى الجامعة (كلية محمد علي) لمناسبة مرور مائة سنة ميلادية على ولاية محمد علي عرش مصر (١٣ مايو سنة ١٨٠٥م). وكتب عدة مقالات شرحًا وتأييدًا للمشروع؛ قال «فريد بك» في هذا الصدد في خطبته يوم (١٧ إبريل سنة ١٩٠٨م): «تعلمون أن المرحوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد أن شرع في الاحتفال بمرور مائة سنة على تولية محمد علي باشا على مصر».

(١) «اللواء» عدد ٨ يناير سنة ١٩٠٥م.

وقد أيد الأمير (حيدر فاضل) دعوة مصطفى كامل، فكتب غير مرة سنة (١٩٠٥م) في تحبيذ المشروع، واستنهض همم الأمراء والأغنياء إلى الاكتتاب له، وجمعت له فعلًا في سنة (١٩٠٥م) الاكتتابات لهذا الغرض من بعض الأمراء والسراة بلغت نحو ثمانية آلاف جنيه، ثم وقف المشروع لعدم تعضيد الخديوي إياه.

وفي (سبتمبر سنة ١٩٠٦م) حين دعا فريد بك إلى تأليف لجنة للاحتفال بعودة الفقيد إلى مصر عقب جهاده في حادثة دنشواي كتب إليه من باريس الخطاب السالف الذكر بتاريخ (٢٤ سبتمبر) يعتذر فيه من عدم قبول هذا الاحتفال، ويقترح فتح اكتتاب عام لتأسيس الجامعة المصرية.

تجددت الفكرة كما أسلفنا عقب حادثة دنشواي، وكان أول من تبرع للمشروع «مصطفى بك كامل الغمراوي» أحد سراة بني سويف؛ إذ تبرع من تلقاء نفسه بخمسمائة جنيه، ودعا سراة البلاد وأعيانها إلى أن يجود كل منهم بمثل هذا المبلغ، ثم تألفت لجنة تأسيس الجامعة واجتمعت لأول مرة بمنزل المغفور له سعد بك زغلول (وكان لا يزال مستشارًا بمحكمة الاستئناف) يوم (الجمعة ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦م)، واختير سعد بك زغلول (باشا) وكيلًا للرئيس، وقاسم بك أمين سكرتيرًا للجنة، وتركت الرئاسة ليتولاها أحد الأمراء، ونشرت الدعوة إلى الاكتتاب وبدأت به فعلًا في أول جلسة، وكان هذا الاجتماع نواة تنفيذ المشروع.

٥ – تعيين سعد زغلول باشا وزيرًا للمعارف

مما لا شك فيه أن تعيين سعد بك زغلول وزيرًا للمعارف كان من النتائج المباشرة لحادثة دنشواي، فقد أرادت الحكومة البريطانية تعديل سياستها في مصر، وكانت تعلم أن من أسباب سخط الأمة على هذه السياسة حصر السلطة في يد المعتمد البريطاني والمستشارين الإنجليز، فأرادت أن تسند بعض المناصب الكبيرة إلى الأكفاء من المصريين، وتترك لهم جانبًا من السلطة، لعلها بذلك تخفف من سخط الأمة على الاحتلال وتجتذب في الوقت نفسه إلى صفها بعض رجالات مصر. ومن المحقق أن

«اللورد كرومر» هو المقترح تعيين سعد زغلول بك وزيرًا للمعارف، وهذه واقعة مسلَّم بها من الجميع، وقد صدر الأمر العالي بتعيينه في (٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦م)، فملابسات تعيينه تدل على أنه نتيجة من نتائج حادثة دنشواي؛ لأن سعد بك زغلول كان مستشارًا بمحكمة الاستئناف منذ سنة (١٨٩٢م)، واللورد كرومر كان معتمدًا لإنجلترا في مصر منذ سنة (١٨٨٣م)، ومع ذلك لم يفكر في إسناد الوزارة إلى سعد بك زغلول المستشار الذي كان منقطعًا إلى قضائه في محكمة الاستئناف، فالتفكير في تعيينه بعد وقوع حادثة دنشواي بنحو أربعة أشهر دليل على أنه أثر من آثارها، وهو جزء من التغيير الذي انتوت الحكومة البريطانية إدخاله في سياستها بمصر عقب الحادثة. ومن هنا يمكنك أن تدرك ما لمصطفى كامل من الفضل في هذا التعيين.

٦- استقالة اللورد كرومر (إبريل سنة ١٩٠٧م)

كان لحملات الفقيد على سياسة الاحتلال في حادثة دنشواي وفي شئون مصر عامة صدى كبير في الرأي العام الأوربي والبريطاني، وألقت حادثة دنشواي على شخصية اللورد كرومر عبئًا كبيرًا من التبعات الجسام؛ لا من الوجهة السياسية فحسب، بل من الوجهة الإنسانية، فرأت الحكومة البريطانية إقصاءه عن منصبه إنقاذًا لسمعتها أمام العالم المتمدن، وتخفيفًا لهياج الشعور الوطني في مصر. وقد استقر رأي الوزارة البريطانية (وكان يرأسها وقتئذ السير هنري كامبل بانرمان زعيم الأحرار) على هذه النية عقب استفاضة الأنباء عن فظائع التنفيذ، ولكنها أرجأت تنفيذ نيتها حتى يعود اللورد كرومر إلى مصر استبقاء لكرامة رجالها، وقد عاد إلى مصر مزودًا بتعليمات جديدة تبعًا لتغيير سياسة الاحتلال كما أسلفنا، ثم قدم استقالته في (إبريل سنة ١٩٠٧م) عقب تقديمه آخر تقرير له عن شئون مصر سنة (١٩٠٦م).

كان استعفاء اللورد كرومر انتصارًا كبيرًا للحركة الوطنية؛ فقد تولى منصبه في مصر منذ سنة (١٨٨٣م)، وبقي فيه إلى سنة (١٩٠٧م)، أي أنه ظل يشغل هذا المركز مدة أربع وعشرين سنة كان في خلالها الحاكم المطلق لمصر، فلا شك أن إقصاءه عن

هذه السلطة بعد هذه المدة الطويلة هو اعتراف بقوة الحركة الوطنية. وكتب الفقيد في عدد (١٢ إبريل سنة ١٩٠٧م) من اللواء تحت عنوان (استعفاء اللورد كرومر) مقالة افتتحها بقوله:

«ما حدثت حادثة دنشواي ودوَّى دويها في العالم كله وقامت لها قيامة الأحرار في إنجلترا، وعرف المتمدنون في أنحاء الأرض مقدار بشاعتها وفظاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها حتى ذاع وشاع أن مدة إقامة اللورد كرومر في مصر محدودة، وأنه لا يلبث أن يترك وظيفته لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل».

وقال ذاكرًا خلاصة تاريخ اللورد كرومر في مصر: «ماذا نذكر من سياسة اللورد كرومر وخطته في مصر؟! نذكر أنه الضارب لعرش الخديوية بيد من حديد؟! نذكر أنه الذي فتح السودان برجالنا وأموالنا، ثم جردنا من كل حق وسلطة فيه؟! نذكر أنه الذي سلب الحكومة المصرية والوزارة الأهلية كل وجود ونفوذ وحياة؟! نذكر أنه الذي حرم الفقراء من التعليم في مدارس الحكومة، وحارب اللغة العربية؟! نذكر أنه الذي قرب الذين يضحون بأشرف العواطف لخدمة المطامع الذاتية؟! نذكر أنه الذي رمى المصريين بكل جهل وتقصير، وأعلن للملأ وجوب سيادة الإنجليزي على المصري ولو كان هذا رئيس ذاك؟! نذكر أنه الطاعن على الدين الإسلامي في تقريره الأخير ذلك الطعن الذي هاجت له عواطف المسيحيين مثل المسلمين؟! نذكر أنه الذي عمل بما في وسعه لمقاومة المطالب الوطنية، وإنكار كفاءة الأمة واستعدادها لنيل الحقوق النيابية؟! نذكر أنه الذي سعى لقتل العواطف الوطنية بالمال وظنَّ أن الثروة وحدها كافية لإرضاء أمة وشراء ضمائر شعب؟! نذكر بنوع خاص أنه الذي أراد الانتقام من شعور الناشئة المصرية في حادثة إضراب الطلبة، فرقي دنلوب مستشارًا للمعارف، وأراد الانتقام من عواطف الأمة كلها، فكان ما كان من دنشواي مما يذكره الخاص والعام؟! نذكر أنه لم يكتف بذلك كله بل تعمد أمام هذه الأمة، وهي

حزينة كئيبة على منكوبي دنشواي، مكافأة من سلكوا في هذه الحادثة المشئومة المسلك الذي يحبه جنابه وتنفر منه الأمة كلها».

وقد كان الفقيد منصفًا في مقاله؛ إذ ذكر للورد كرومر ما له بعد أن ذكر ما عليه، قال: «هذا ما نذكره للورد كرومر ويذكره كافة المصريين، ولكننا نذكر له بكل إنصاف أنه لبث طول حياته مثالًا للنزاهة، حتى يصح أن تضرب به الأمثال من هذه الوجهة لكافة الحكام وذوي السلطة، ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الأرض بما في قبضته من جاه ونفوذ؛ ولكنه فضل الشرف الذاتي على المال، وخيرًا فعل».

ثم قال: «ونذكر له أيضًا أنه عمل ما عمل في مصر ليجعلها مستعمرة إنجليزية، إن لم يكن اسمًا ففعلًا، فهو كان على خلاف تام مع أحرار الإنجليز الذين يرون في مصافاة المصريين نفعًا لإنجلترا أكبر وأسمى من معاداتهم سلب حقوقهم».

الاتحاد

وختم الفقيد مقالته بقوله:

«مهما كانت الخطة التي تنوي الدولة الإنجليزية اتباعها في مصر، فإننا لا نرى لبلادنا سلامة ونجاحًا إلا في اتفاق المصريين واتحادهم وتضامنهم في المطالبة بحقوقهم والمناداة بميولهم بكل همة وصراحة وبلا خوف ولا حياء؛ لأن الأمة لا تبلغ مأربها إلا إذا كانت قادرة على نيله، وليس في مظاهر القوة مظهر أرقى وأسمى من المجاهرة بالحق والدفاع عن مصالح الأوطان بكل قلم ولسان».

وخلف اللورد كرومر في منصبه السير «إلدون جورست»، وقد افتتح عهده بالنصح بالإفراج عن مسجوني دنشواي.